

العمل والفاعلية طريق التقدم

حسن موسى الصفار



- هذه السطور
- بين الأمل والعمل
- إرادة العمل
- العمل والفاعلية في رؤية الإسلام
- كيف يعمل الآخرون
- إتقان العمل
- حواشي الكتاب

العمل والفاعلية طريق التقدم

حسن موسى الصفار

الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

توزيع دار الكنوز الأدبية

بيروت - لبنان

ص.ب ٧٢٢٦ - ١١

هاتف/ فاكس ٧٣٩٦٩٦ - ٠١

٥	هذه السطور
٧	بين الأمل والعمل
١٢	إرادة العمل
١٩	العمل والفاعلية في رؤية الإسلام
٢٥	كيف يعمل الآخرون
٣٥	إتقان العمل
٤٣	حواشي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ }

(سورة التوبة آية ١٠٥)

هذه السطور

الإنسان هو أساس التنمية، ومحور النهوض والتغيير، فلا تحدث تنمية حقيقية إلا من خلال إنسان فاعل، ولا يتحقق تقدم إلا عبر مجتمع ناهض، وأوطاننا ومجتمعاتنا لن تتجاوز تخلفها إلا إذا قرر أبناؤها استخدام قدراتهم وطاقاتهم في العمل والبناء، وهل ينقص إنساننا شيء؟

إنه لا يقل ذكاءً وفطنة عن أبناء المجتمعات الأخرى، وليست مواهبه واستعداداته أضعف من الآخرين، لكن ما يحتاج إليه إنساننا هو إرادة العمل، بأن يقرر بذل أقصى طاقته، وغاية جهده، من أجل بناء الوطن، وصنع المستقبل الأفضل. وإرادة العمل تعني رفض غبار الكسل والخمول، ورفض منطق التبرير والتواكل، وتحدي المشاكل والصعوبات، وتحمل المشقة والعناء.

الكثيرون منا يفقدون هذه الإرادة، وينذرون بمختلف الحجج والأعذار، ويلقون باللائمة على غيرهم من جهات وأوضاع.

والكثيرون يشفقون على أنفسهم من بذل أقل جهد أو تحمل أبسط عناء. وإرادة العمل إذا ما تفجرت وأشرققت في نفس الإنسان، انعكست أشعتها وآثارها على مختلف جوانب حياته، فيها يتفتق ذهنه عن الخطط والمشاريع، وينتج عقله الآراء والأفكار، وتنشط حواسه وأعضاؤه للحركة والأداء.

وبامتلاك إرادة العمل وتفعيلها يتطور وضع الإنسان الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، فانتشار الدين، وتعزيز مكانته، والتفاف الناس حوله، لا يحصل إلا إذا كان هناك عمل ونشاط من قبل المتصدين للقضايا الدينية" والمستوى الثقافي لا يتقدم لدى الفرد والمجتمع إلا بوجود حركة ثقافية والاقتصاد إنما يتطور وينمو من خلال السعي وبذل الجهد وهكذا في سائر المجالات.

لقد عايشنا وخالطنا فئات عديدة، وأفراداً كثيرين من أبناء المجتمع، ووجدتهم يشكون من نواقص ومشاكل مختلفة في حياتهم، ويتحدثون عن بعض التطلعات والآمال في نفوسهم، لكنهم يقفون عند حدود التذمر والشكوى، وبث مشاعر الأمل والرجاء، مع امتلاكهم لشتى القدرات والطاقات، وتوفرهم على أفضل الفرص والإمكانات..

مما كان يدفعني للتأمل في هذه الحالة، والبحث عن خلفياتها وجذورها، وتلمس أفضل الطرق والأساليب للخروج من هذه القوقعة المتخلفة، إلى آفاق الفاعلية والتقدم.

فكانت هذه السطور المتواضعة والتي هي في الأصل أحاديث ألقيتها في بعض المناسبات.

وإذ أقدمها اليوم ضمن هذا الكتيب، لأرجو أن تسهم في بث روح الفاعلية والنشاط، وتنمية إرادة العمل والحركة والجد والاجتهاد، ومع إدراكي للأبعاد الأخرى ذات التأثير الكبير على مسألة الفاعلية والعمل في مجتمعاتنا، إلا أنني في هذه الأحاديث أتوجه بالخطاب للإنسان ذاته، فهو إذا قرر العمل، وامتلك إرادته، وتحلّى بأخلاقياته، فسيكون أقدر على مواجهة المعوقات، وتجاوز الصعوبات.

عسى الله تعالى أن يمنّ علينا جميعاً بالتوفيق للخير، والمبادرة لصالح الأعمال، إنه سميع مجيب.

١٤٢١/٤/٢٧هـ

٢٠٠٠/٧/٢٩م

بين الأمل والعمل

هناك ثلاثة عوالم تحيط بشخصية الإنسان وتتفاوت من حيث التأثير على واقع حياته، وهي:

عالم الآمال والتطلعات.

عالم الأفكار والمعتقدات.

عالم السلوك والأعمال.

ويهمنا في هذا البحث استقراء وتلمس مدى ارتباط كل واحد منها بواقع الإنسان وتأثيره على صنع وضعه ومجريات حياته.

الآمال والتطلعات:

من إشراقات نور العقل الذي اختص الله تعالى به الإنسان، القدرة على التخيل والتطلع، فالواقع الذي يعيشه الإنسان لا يشكل سقفاً لأشعة تفكيره، بل إن ذهنه يحلّق بعيداً متجاوزاً معطيات الواقع المعاش.

لذا يمتاز الإنسان بحالة الأمل والتمني، وهي وليدة ملكة الخيال، فحينما يتخيل شيئاً يتمناه، ويأمل الوصول إليه، ويتطلع لتحقيقه.

وأكثر منجزات الإنسان العلمية ومكاسبه الحضارية، كانت في بدايتها خيالات وأحلام، وآمال وتطلعات، حتى أصبح عندنا لون من ألوان الأدب الإبداعي، يطلق عليه قصص الخيال العلمي، حيث ينطلق الفكر لدى بعض الأدباء محلقاً في سماء الخيال والتمني، لينسج

أحداثاً وأوضاعاً تتخطى الواقع المعاش، وليرسم صوراً ولوحات تتجاوز الإمكانات المتاحة، ولكنها قد تتحقق فيما بعد وتصبح ظواهر حية مألوفة.

إن ارتياد الفضاء والسفر إلى القمر، الذي أنجزه إنسان القرن العشرين، كان حلماً وخيالاً داعب عقل الإنسان من القرن الثاني للميلاد، حيث كتب (لوسيان) السوري كتاباً باللغة اليونانية بعنوان "قصة حقيقية" كما كتب فيما بعد الفرنسي (سيرانودي برجرانك) في القرن السابع عشر متخيلاً رجالاً يطيرون في الفضاء في سفن وصواريخ متعددة الطوابق، وكتب الفلكي الألماني (يوهانس كيبلر) قصة "رحلة إلى القمر". ومن عجيب ما يذكر أن المخابرات الأمريكية أصيبت بالشك والحيرة حين نشر الكاتب الأمريكي (كارتميل) عام ١٩٤٤م قصته "الموعد النهائي" التي تشير إلى صنع قنبلة ذرية. ومردّ هذا الشك وهذه الحيرة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تجدّ في ذلك الوقت في صناعة القنبلة الذرية في جو من السرية التامة، وثبت من التحقيقات التي أجرتها المخابرات الأمريكية أن الكاتب لم يطلع على هذا السر، وإنما كان ذلك من بنات أفكاره وأعمال خياله. (١)

وعن المدى الواسع لتطلعات الإنسان وآماله، يقول الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام:

(الأمل لا غاية له) (٢).

(الآمال لا تنتهي) (٣).

(لا تخلو النفس من الأمل حتى تدخل في الأجل) (٤).

إن أهمية الأمل والتطلع عند الإنسان تتحقق عندما يكون وقوداً للحركة، وطاقةً للسعي، وعندما يخلق حالة الاندفاع نحو العمل، وبنفس القدر يكون مؤثراً في حياة الإنسان وفاعلاً في واقعه.

أما إذا تحول الأمل والتطلع إلى تمنيات فارغة، وتخيلات ساذجة، يكتفي الإنسان بالتلذذ باجتراح صورها في مخيلته، والأنس بتكرارها على مسرح ذهنه، فسوف لن يكون لذلك أي تأثير على واقعه، ولن يلامس شيئاً من أوضاع حياته.

فمجرد التمني لشيء دون السعي نحوه لا يعطيك ذرة من الحق في الوصول إليه، يقول تعالى: {أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى} (٥).

ذلك أن السعي وحده هو طريق الإنجاز، يقول تعالى: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى} (٦).

الأفكار والمعتقدات:

المعتقدات الدينية للإنسان تعني الإجابات التي يتوصل إليها عن التساؤلات التي ترتسم أمامه عن وجوده ومصيره ومساره في هذه الحياة.

وقد تكون تلك الإجابات – المعتقدات – نتيجة بحث وتفكير ذاتي من الإنسان، أو تكون نتيجة تقليد واتباع ومحاكاة.

بالطبع تتفاوت المعتقدات من حيث إصابتها للحقيقة والواقع أو مفارقتها لذلك، وفي درجة الإصابة أو المخالفة.

وإذا كان الوصول إلى العقيدة الصحيحة ضرورياً ومهما للإنسان، فإن ما يهمننا في هذا البحث، هو رصد مدى تأثير تلك العقيدة الصحيحة على واقع حياة الإنسان وأوضاعه.

فالإيمان بعقيدة صحيحة لا يعني إنتاج واقع صحيح دائماً وأبداً، إلا بمقدار ما تنعكس تلك العقيدة على سلوك الإنسان وعلمه، والقرآن الكريم حينما يتحدث عن الإيمان يقرنه غالباً بالعمل الصالح، للتأكيد على مصداقية الإيمان وأثره في حياة الإنسان.

يقول تعالى:

{مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (٧).

{وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى} (٨).

{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبَ} (٩).

ونجد هذا التلازم بين الإيمان والعمل مكرراً في أكثر من سبعين آية في القرآن الكريم، لكي يؤكد حقيقة هامة، هي ضرورة انعكاس الإيمان عملياً على حياة الإنسان وسلوكه، وأنه لا قيمة له إذا كان مجرد نظريات حبيسة في الذهن، أو قناعات مخترنة في النفس.

ولا يصح أبداً أن يتوقع الإنسان المؤمن أن تشفع له عقيدته الصحيحة في ترتيب شؤون حياته، وفي أخذ موقع متقدم على الآخرين، دون أن يكون مستحقاً لذلك بكفاءته وسعيه.

ففرص التقدم في الحياة متاحة للجميع، والسنن الإلهية الحاكمة لا تقبل المحاباة ولا المحسوبيات. إن القدرة على السباحة في البحر تنجي الإنسان من الغرق، مؤمناً كان أو كافراً، فإذا لم يتقن المؤمن السباحة فإنه سيغرق إنفاذاً لسنة الله، ولا يشفع له إيمانه وتدينه في النجاة، وإذا كان الكافر قادراً على السباحة فسيصل إلى ساحل البحر بسلام رغم كفره، يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} (١٠).

فعطاء الله تعالى في الدنيا ليس خاصاً بالمؤمنين، وإنما هو مبذول لهم وللكافرين على حدٍ سواء، وليس محظوراً على أحد، بسبب بطلان عقيدته أو مذهبه.

ويخاطب الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام من يراهنون على قوة الفكر والخطاب، مع ضعفهم في مجال العمل والحركة بقوله: (إنكم إلى إعراب الأعمال أحوج منكم إلى إعراب الأقوال)(١١).

ويقول أيضاً عليه السلام: (الشرف عند الله سبحانه بحسن الأعمال لا بحسن الأقوال)(١٢).

وفي معركة أحد نجد مصداقاً جلياً لهذه المعادلة الحياتية، والسنة الإلهية، فمع أن المسلمين هم أصحاب الدين الصحيح، والعقيدة الصادقة، وكان فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو أشرف خلق الله، وأحبهم إليه، إلا أن ذلك لم يشفع لهم في الانتصار على العدو الكافر، ذي العقيدة الفاسدة، حينما قصروا في العمل ولم يلتزموا بخطة المعركة، حيث نزل الرماة من أعلى الجبل وأعطوا للعدو فرصة الالتفاف عليهم.

الأعمال والسلوك:

إن سعي الإنسان هو الذي يصنع واقعه في هذه الحياة، وإن عمله ونشاطه هو الذي يحدد درجة مستواه الحياتي. وإذا ما رأينا الناس تتفاوت مستوياتهم، كأفراد وكأمم ومجتمعات، فهناك من يصنف ضمن فلك العالم المتقدم، وهناك من يرزح تحت وطأة التخلف، فلا بد أن نبحث عن سبب هذا التفاوت في المجال السلوكي العملي.

فالنجاح والفشل والتقدم والتأخر، ليس نتيجة لتفاوت مستوى التطلعات والآمال، ولا هو أثر حتمي للمعتقدات والأفكار المجردة، وإنما هو إفراز طبيعي لمستوى العمل والسعي والنشاط.

ويقرر القرآن الحكيم، في آيتين كريمتين، أن عمل الإنسان هو الذي يحدد درجته ومستواه في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (١٣).

ويقول تعالى: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (١٤).

إن درجة ومستوى كل إنسان، فرداً كان أو مجتمعاً، لا تتحدد من وحي تخيلاته وآماله وتطلعاته، ولا من خلال أفكاره ومعتقداته وإنما {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا} أي أن درجته تتحدد عبر سعيه وعمله.

وعلى الإنسان أن يثق بقيمة العمل وجدواه، فالإدارة الإلهية للكون حكيمة مهيمنة عادلة، لا تسمح بانفلات ذرة من الجهد والنشاط خارج المعادلات والسنن. ذلك أن ضياع شيء من الجهد والعمل، إنما يحدث إما خطأً بسبب الغفلة وعدم الانتباه، وهذا منفي حتماً عن الله

تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} وإما عمداً وذلك ظلم وبخس يتتـزه الله تعالى عنه: {وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ}.

إن البعض من الناس، بسبب الجهل، أو بدافع الكسل، يتوانى عن العمل والحركة، تشكيكاً منه في جدوى العمل وتأثيره، حيث يصاب بحالة من الإحباط والعزوف عن الفاعلية. لهؤلاء يتوجه القرآن الكريم مؤكداً خطأ تصوراتهم، ومقرراً حتمية تأثير أي ذرة من العمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة خيراً كان أو شراً.

يقول تعالى: {لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} (١٥).
ويقول تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (١٦).

إرادة العمل

لا تزال مجتمعاتنا في العالم الثالث تواجه نقصاً وتخلفاً في شتى مجالات حياتها، فالبنية التحتية، والاحتياجات الأساسية، لم تستكمل بعد في مختلف المرافق، فضلاً عن الطموح للالتحاق بركب الحضارة، والدخول في نادي المجتمعات الصناعية المتقدمة.

ويكفي أن نعلم أنه حتى في الجانب الغذائي وهو من أشد ضرورات الحياة ومقوماتها هناك عجز واضح ونقص خطير.

فالتقديرات التي أعدتها المنظمة العربية للتنمية الزراعية، تؤكد أن البلدان العربية لا زالت تتكل على استيراد الجزء الأهم من احتياجاتها الغذائية الأساسية، وطبقاً للأرقام المتوافرة فإن العجز في إنتاج الحبوب يصل إلى حوالي ٢٣ مليون طن سنوياً، في الوقت الذي لا يزيد فيه مستوى الاكتفاء عن ٤٨ في المائة، وتقدر قيمة ما تدفعه الدول العربية سنوياً لاستيراد ما تحتاجه من الحبوب من الخارج بين ٦ و ٨ مليارات دولار، وفق تطور الأسعار في السوق العالمية.

وفي السياق نفسه فإن إنتاج الدول العربية من السكر، وهو إحدى المواد الغذائية الأساسية، لا يغطي أكثر من ٣٦ في المائة فيما يقدر العجز الذي تتم تغطيته بواسطة الاستيراد من الأسواق العالمية بحوالي ٣.٧ مليون طن، بأكلاف تتراوح بين ١.٣ و ٢ مليار دولار.

وفي مجال إنتاج الزيوت الصالحة للاستهلاك، تستورد الدول العربية ١.٧٥٠ مليون طن سنوياً، فيما لا تزيد نسبة الاكتفاء الذاتي عن ٤٣ في المائة.

وفي تقديرات أخرى فإن الفاتورة التي تدفعها الدول العربية سنوياً لتأمين الحد الأدنى من احتياجاتها الزراعية، قد تصل بالنسبة إلى المواد الأساسية إلى حوالي ١٧ مليار

دولار، في حين يمكن أن ترتفع إلى حوالي ٦٠ مليار دولار، إذا احتسبت كلفة استيراد السلع الغذائية، واللحوم والأسماك (١٧).

وقال وزير التجارة المصري أحمد جويلي خلال افتتاحه المؤتمر السنوي الـ ٣٤ لاتحاد غرف التجارة العربية: " ان الدول العربية تدفع مالا يقل عن ٤٠ مليون دولار يومياً ثمناً للمواد الغذائية المستوردة من الخارج وان المواطن العربي أصبح يعتمد على الخارج للحصول على ٦٥% من احتياجاته من القمح، و ٧٤% من السكر و ٦٢% من الزيوت النباتية".

وأضاف: "يعني هذا أن الدول العربية أصبحت في مجموعها، أكثر مناطق العالم عجزاً في الغذاء" (١٨).

وحالة العجز هذه تواجه العالم العربي والإسلامي في مختلف المجالات والجوانب، من اقتصاد وعلوم وتكنولوجيا وثقافة، حيث نستورد معظم احتياجاتنا من الخارج.

وفرة الإمكانيات:

لكن هذا النقص والعجز ليس بسبب ندرة المواد وشح الإمكانيات، فعدا الثروات النفطية والمعدنية، والمواقع الجغرافية الاستراتيجية، يتمتع العالم العربي والإسلامي بإمكانات وافرة هائلة، لكنها في الأغلب غير مستثمرة ولا مستغلة.

وتقول تقديرات علمية إن الدول العربية لا تستثمر حالياً أكثر من ١٠% من أراضيها الزراعية، فيما لا يزيد مستوى الإفادة من الأمطار عن ١٥% بينما يذهب ما يقدر بحوالي ٣٨% من مياه الري نتيجة تدني كفاءة شبكات الري والنقل وارتفاع معدل التسرب الذي تعاني منه.

وكنموذج للإمكانيات الوفيرة التي لا تستغل، نشير إلى تحقيق نشرته مجلة (الاقتصاد) التي تصدرها غرفة تجارة وصناعة المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، تحت عنوان (الأسماك ثروة مهدرة). ومما جاء فيه نفتطف الفقرات التالية:

تمتاز منطقة الخليج بسواحلها المترامية الأطراف، والتي تمتد لحوالي ٣٥٠٠ كيلومتر كما أن الرصيف القاري لها يحتل مساحة تقدر بـ ٢٥٠ كيلومتراً مربعاً. وتدل هذه الأرقام على أن ثروة سمكية هائلة توجد في هذه المسطحات المائية الشاسعة، وان إمكانية استغلال هذه الثروة الاستغلال الأمثل ليس بعيد المنال.

وتنفرد المملكة بامتلاكها لأطول شريط ساحلي في منطقة الخليج العربي حيث تبلغ سواحلها ٢٣٢٠ كيلومتراً منها ١٧٦٠ على البحر الأحمر غرباً، ٥٦٠ كيلومتراً على الخليج العربي شرقاً.

وتم تسجيل أكثر من ١٨٠ نوعاً من الأسماك والروبيان في مياه المملكة. وصل إنتاج الأسماك في المملكة عام ١٩٩٣م إلى ٥٠ ألف طن، ويغطي من ٥٠-٦٥ في المائة فقط من الاستهلاك المحلي الكلي وقد بلغ الاستيراد أكثر من ٢٨ ألف طن عام ١٩٩٤م. فهناك فجوة كبيرة تتجاوز ٣٥ في المائة بين الإنتاج والاستهلاك.

إن دول الخليج لا تستغل إلا نسبة ١٤ في المائة فقط من المخزون السمكي الممكن استغلاله سنوياً، وهذا أدى بدوره إلى الاعتماد المتزايد على استيراد هذه السلعة الغذائية الهامة حيث بلغت الواردات الخليجية حوالي ١٠٤ آلاف طن عام ١٩٩٢م (١٩).

وتشير بعض الإحصائيات الرسمية إلى أنه يبلغ عدد صيادي الأسماك في المنطقة الشرقية (المرخصين) ٦٨٤٨ صياداً منهم ١٠١٩ سعودي بينما يصل عدد الصيادين الأجانب ٥٨٢٩ أغلبهم من العمالة الهندية، بالرغم من أن صيد الأسماك من المهن التقليدية في المنطقة.

وإلى جانب توفر الثروات الطبيعية، والإمكانات الهائلة، هناك سيولة مادية، وملاءة نقدية، يمكن بها تمويل مشاريع الاستثمار والتنمية والتصنيع، فحجم الأموال العربية المستثمرة في الخارج تقدر بحوالي ٨٥٠ مليار دولار، وتتجاوز الاستثمارات الخليجية وحدها ٣٥٠ مليار دولار، بالأسواق المالية الدولية.

ونقرأ في بيانات أرباح المصارف والبنوك في بلادنا ما يدل على حجم تلك السيولة النقدية، فقد أظهرت النتائج المالية أن الأرباح الصافية للمصارف السعودية وعددها (١١) مصرفاً، والتي أصدرت بيانات مالية، ارتفعت إلى ٤.١ مليار ريال (١.٧ مليار دولار) في النصف الأول من عام ١٩٩٩م (٢٠).

فرص العمل:

ولوجود الإمكانيات الهائلة، والسيولة النقدية، ولتقدم نسبة النمو السكاني حيث تشير الإحصاءات الرسمية إلى أنه يبلغ ٤% سنوياً في المملكة، فإن فرص العمل متوفرة في بلادنا لسد الاحتياجات وتقديم الخدمات في مختلف المجالات، لذا تستقطب بلادنا الملايين من الخبراء والعاملين، وقد بلغ حجم التحويلات المالية التي بعث بها العمال الأجانب في السعودية إلى أوطانهم الأم أكثر من ١٧ مليار دولار سنة ١٩٩٥م أي ما يساوي ٣٧% من

الدخل السعودي من النفط. ويزيد عدد الوافدين للعمل في السعودية على ستة ملايين عامل ينتمون إلى ١٩٠ جنسية، وقد أكد وزير الداخلية السعودي أن المملكة هي من أكثر بلاد العالم استخداماً للعمالة الوافدة بالنسبة إلى عدد السكان. ولا تزيد العمالة الوطنية في قطاع الصناعة لدى مؤسسات القطاع الخاص عن ٤% وفي قطاع الخدمات ١٢%(٢١).

لقد بلغ عدد العاملين الذكور في منشآت القطاع الخاص عام ١٩٩٧م حوالي ٥٣٢ ألف عامل بينما بلغت العمالة الوافدة من الذكور في تلك المنشآت لنفس العام ٢ مليون عامل، وتشير التوقعات إلى ازدياد الطلب على العمالة الوافدة خلال الأعوام القادمة(٢٢).

ونسوق القصة التالية كمثال على توفر فرص العمل: حيث كشفت الجهات المختصة في السعودية عن أن عاملاً هندياً دخل البلاد قبل ١٥ عاماً تحت كفالة طبيب سعودي، وفتح مركزاً طبياً أهلياً بعمالة طاقمها من الهند، الأطباء والممرضات والعاملين، وتوسع نشاط العامل بعد النجاح الذي حققه ليفتح فيما بعد مستوصفاً في الرياض والقصيم والشرقية وجدة، وخميس مشيط، حتى وصل إجمالي المستوصفات التي يديرها الهندي إلى ١٨ مستوصفاً، يديرها العامل مقابل تسليم الكفيل السعودي ٢٥٠٠ ريال عن كل مستوصف يودعها في حسابه البنكي يومياً دون تدخل الكفيل السعودي في حسابات الربح والخسارة وإجارات المباني والمعدات ورواتب العاملين. وتصل عوائد الكفيل السعودي من المستوصفات الـ ١٨ إلى ١.٣ مليون ريال شهرياً بينما تصل عوائد العامل الهندي وصافي أرباحه إلى ١.٨ مليون ريال شهرياً(٢٣).

سؤال يفرض نفسه:

أمام هذه المعادلة التي ترسمها الحقائق والأرقام، من وجود إمكانيات هائلة، وسيولة نقدية، ونمو سكاني، وفرص عمل كبيرة، فلماذا لا تزال بلادنا تفتقر إلى الاكتفاء الذاتي؟، ولماذا نستورد أغلب احتياجاتنا من الخارج؟، بل ولماذا نعيش التخلف والنقص في أساسيات ومقومات الحياة؟.

وما يجعل السؤال أكثر إلحاحاً هو نمو ظاهرة البطالة في بلادنا بحيث وصلت إلى ٣٥% من قوة العمل حسب بعض التقارير، وأصبحت مصدر همٍ وقلق للمسؤولين والمواطنين..

ظاهرة بطالة في بلد يستقطب أكثر من ٧٠ ألف يد عاملة سنوياً.. ويحتضن أكثر من ستة ملايين عامل أجنبي.. ويزخر بفرص عمل غنية تشخص لها الأبصار من وراء البحار والمحيطات..

إن ذلك يكشف عن خلل كبير يطال أكثر من جهة وجانب، ويستلزم الاستتفار العام، وإعلان حالة الطوارئ في مجال السياسات التعليمية، والأنظمة الاقتصادية، والتربية العائلية، والتوجيه الإعلامي، والثقافة العامة.

وفي بحثنا هذا سنقصر الحديث على عنصر هام، وبُعد أساس، في واقع هذه المشكلة، وهو ما يتعلق بخلق إرادة العمل في نفس الإنسان - المواطن، ودفعه لاقتحام ميدان السعي والحركة بجد واجتهاد، من أجل تحقيق ذاته، وتفجير مواهبه وكفاءاته، وليشارك في بناء وطنه ورفعته مجتمعه وأمته.

مسؤولية التربية:

يأتي الإنسان إلى هذه الحياة كمادة خام، تقوم التربية والتنشئة بتصنيعه نفسياً وسلوكياً، لذلك فإن دراسة الواقع العائلي في مجتمعاتنا، وطبيعة تعاطيه التربوي مع الجيل الناشئ، وملاحظة الظروف الحياتية التي يعيشها أبناء هذا الجيل في طفولتهم، تكشف لنا عن خلفيات وجذور سلوكياتهم، وطرائق تفكيرهم وتعاملهم مع الحياة.

كانت ظروف الحياة القاسية في بلادنا قبل عقود قليلة من الزمن، تدفع العائلة إلى حياة الكدح والنشاط، ويفتح الطفل عينه ليرى أفراد عائلته نساءً ورجالاً، كباراً وصغاراً، وهم يعملون ويكدحون، لتحصيل لقمة العيش، وتسيير شؤون المنزل، ولم يكن هناك شيء من وسائل الرفاه، أو أجواء التنعم والرخاء إلا ضمن نطاق محدود.

فيتربى الطفل على الكدح والعمل مع عائلته من نعومة أظفاره، حيث يصحب أباه ويشاركه في بعض أعماله، كما تساعد البنت أمها منذ حداثة سنها في تحمل مهامها ووظائفها المنزلية والعملية.

يستيقظ الطفل مبكراً كوالديه، ويتدرب على العمل تحت إشرافهم، ويواجه مثلهم إلى حد ما الصعوبات والمشاق، ويتربى على تحمل المسؤولية في سن مبكر.

لكن تطورات الحياة الحديثة فرضت تغييراً في نمط المعيشة، حيث توفرت حالة من الرخاء على المستوى العام، ولم يعد الطفل يشهد شيئاً من العناء والكدح في حياة والديه، فالآباء يعملون في وظائفهم وأعمالهم بعيداً عن أجواء المنزل والعائلة، والأمهات يستخدمن مختلف الوسائل والأجهزة السريعة المريحة في خدمات المنزل، بل تستعين بعضهن بالخدمات والشغالات.

ويعيش الأولاد ذكوراً وإناثاً عقدين من أعمارهم كضيوف شرف مدللين مخدومين في منازلهم غالباً، خلال فترة الدراسة، وإلى أن يشقوا طريقهم للعمل والوظيفة.

وتبالغ بعض العوائل وخاصة الموسرة في توفير أجواء الرخاء والرفاه لأبنائها، بتلبية كل مطالبهم الكمالية فضلاً عن الضرورية، وتوفير السيولة النقدية بأيديهم، ليصرفوا وينفقوا دون أن ينالهم شيء من عناء الكسب.

هذه الظروف التي يعيشها أبناء هذا الجيل في نشأتهم ومقتبل أعمارهم، تترك آثارها في نفوسهم، رغبة في الراحة والدعة، وعزواً عن الكدح والعناء.

وينقل عن عرب مكة أنهم كانوا وقبل الإسلام، يدفعون أولادهم الصغار إلى العوائل البدوية في الصحراء، ليتدربوا على مواجهة الصعاب، بعيداً عن رخاء الحاضرة ورفاهها. إننا يجب أن نلاحظ في تربية أبنائنا إعدادهم لما ينتظرهم من مشاق الحياة، وتهيبتهم لتحمل مسؤوليات العمل والبناء، فنهتم بالتوازن بين إراحتهم والعطف عليهم، وبين صقل شخصياتهم وشحذ هممهم وإرادتهم.

دور الثقافة:

قد يندفع الإنسان للعمل تحت ضغط الحاجة ولتوفير متطلبات الحياة، فيسعى ويكدح ضمن هذه الحدود، وقد ينطلق في حركته ونشاطه بدافع ثقافي معرفي، حينما يعي طبيعة الحياة، ويدرك دوره الطبيعي الخلاق، ويهتم بموقع أمته ووطنه، على خارطة العالم. وهنا يكون الانطلاق في أفق حضاري رحيب، تتفجر على أساسه الطاقات، وتتمو المواهب والقدرات، ويبذل الإنسان أقصى جهوده وإمكاناته، ليكون على مستوى التنافس والصراع بين الأمم والحضارات.

وتحتاج مجتمعاتنا، وخاصة الأجيال الناشئة منها، إلى الثقافة الدافعة نحو العمل، والمحركة باتجاه الإبداع والانطلاق.

ويمكن للتوجيه الديني أن يقوم بدور أساس في هذا المجال، لأن مفاهيم الإسلام وتعاليمه تستهدف بناء شخصية الإنسان العامل الكادح، الذي يتطلع إلى عمارة الأرض وتسخير الكون، وتحقيق خلافة الله تعالى في هذه الحياة.

لكن المشكلة هو ما حصل من انفصال بين التوجيه الديني وشؤون الحياة لدى بعض الأوساط الدينية، حيث غابت هموم المعيشة وقضايا الحياة عن لغة الخطاب الديني، والذي أصبح مهتماً بالتوجيه إلى قضايا الآخرة وتحصيل الجنة وحرور العين فيها، بل بالغ بعض الواعظين والمرشدين في تثبيط همم الناس عن الكدح والعمل، نتيجة خطئه في قراءة بعض المفاهيم الدينية كالزهد والتقوى والورع، ودم حب المال والدنيا، فعرضت هذه المفاهيم كباعث للعزوف عن المصالح الدنيوية، والإعراض عن تحقيق المكاسب المادية.

وذلك انحراف واضح عن استقامة الإسلام، وتوازن تعاليمه بين مكاسب الدنيا وثواب الآخرة، فالمؤمن الحقيقي يتطلع للتقدم والنجاح في الدارين، ويقول كما علمه الله تعالى: { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً } (٢٤).

وكما يرشده خالقه بقوله تعالى: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } (٢٥). وجاء في الحديث الشريف: (من لا معاش له لا معاد له).

أما التقوى والورع والزهد وسائر المفاهيم العظيمة، فهي كوابح وضوابط لتنظيم حركة الإنسان في الحياة، حتى لا يقع في المزالق والمهالك، ولا يفقد توازنه، أو يبغى ويعتدي على أبناء جنسه.

إن آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، والأئمة الهداة من أهل بيته، والأخيار الكرام من صحابته، كلها توجيه ودفع للجد والاجتهاد، والعمل والسعي، والكدح والحركة، وعلى هدي هذه التوجيهات شقت الأمة الإسلامية طريقها نحو التقدم والرفعة، وصنعت حضارتها المشرقة الزاهية، وحينما حصل التحريف والتزييف في طرح مفاهيم الإسلام وأفكاره، وعادت أحكامه وشرائعه مجرد طقوس وتقاليد لا روح فيها، ولا تفاعل لها مع واقع الحياة، حينئذٍ تراجعت مسيرة الأمة، وانتكست حضارتها، وأصبحت في ذيل القافلة، بعد أن كان بيدها معقد الزمام.

إننا بحاجة ماسة إلى نفض غبار التخلف الذي تراكم على جوهر تراثنا، وحقائق مفاهيم ديننا، ليعود الإسلام كما كان مشروع حضارة وبناء، ومنهج حركة وإبداع.

وعلماء الدين وخطباء المنبر، تقع عليهم مسؤولية بعث روح العمل والنشاط، وإذكاء همم الإنتاج والعطاء.

ووسائل الإعلام يجب أن تأخذ دورها الإيجابي في التنقيف العام الذي يدفع أبناء الوطن إلى التطوع والطموح، وتنقل لهم تجارب الآخرين، ومدى سعيهم في مجالات العلم والتكنولوجيا والتصنيع.

ومؤسف أن أغلب وسائل الإعلام، وبدل أن تشارك في صياغة نفسية المواطن على أساس الجد والمسؤولية والالتزام، فإنها تنشر ثقافة الميوعة والهبوط الأخلاقي، وتبشر بحياة الترف واللهات خلف الملذات والأهواء، ولا تنقل لأبنائنا صور النضال العلمي، والنشاط العملي الدائب في المجتمعات المتقدمة، بل تروج لمشاهد الخلاعة والفساد والانحراف، الذي يحصل هناك، ويشكل جانب الضعف في تلك المجتمعات.

كما أن الأجواء العامة السائدة في المجتمع، من أمثلة شعبية، وأخبار متداولة، وأحاديث في المجالس والمنديات، ينبغي أن تستهدف التركيز والتأكيد على تشجيع المبادرات

الإيجابية، والإشادة بالتجارب العملية الناجحة، وأن تشحن النفوس بحب العمل، والرغبة في الكدح، وتجاوز العقبات والصعوبات التي تعترض طريق العاملين.

وما نراه في بعض الأوساط الاجتماعية من انتشار أجواء سلبية، تستهين بهذا العمل أو ذلك، وتشكك في جدوائية الأنشطة والمبادرات، وتضخم النواقص والثغرات، هذه الأجواء إنما تتركس تخلف المجتمع، وتنشط الهمم والعزائم في نفوس أبنائه، وتضرر بمستقبله ومصالحته.

إن البعض منا من أجل يبرز تعاطفه مع هذا العاقل عن العمل، أو ذلك من محدودي الدخل، فإنه يلقي باللائمة على مختلف الجهات والأطراف، دون أن يشجع هذا الإنسان على تحمل المسؤولية، وعلى مضاعفة السعي وبذل الجهد، وبذلك يسود منطق التبرير، وروح النشأوم والتقاعس واليأس.

العمل والفاعلية في رؤية الإسلام

إنما خلق الله تعالى الإنسان في هذه الحياة، ليكدح ويعمل، فهو مزود بطاقات وقدرات لا بد من تفعيلها بالسعي والحركة، وإلا كان وجودها عبثاً ولغواً، كما أن الفاعلية والنشاط هو الطريق إلى استثارة قدرات الإنسان وبلورة مواهبه، ومن دون ذلك تبقى كامنة معرضة للضمور والتلاشي.

وكلما زاد سعي الإنسان، واشتدت حركته، ظهرت كفاءاته، وأنصقلت شخصيته، من خلال كدحه وعمله، فيجب أن يكون في حالة سعي وكدح دائم، ما دام على قيد الحياة، يقول تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ } (٢٦) .

ومطلوب من الإنسان إعمار الكون، استثمار خيراته ونعمه، فالأفلاك والمجرات التي تسبح في الفضاء، والخزائن الكامنة في أعماق الأرض، والثروات التي تملأ قاع البحر، وكل هذا الوجود الكوني العظيم مسخر لمصلحة الإنسان، ومهيأ لكي يمارس في ربوعه الإنسان دور القيادة والسيادة، كخليفة من قبل الله تعالى.

يقول تعالى: { هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (٢٧).

ويقول تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ } (٢٨).

وذلك يستلزم إعمال الفكر، وبذل الجهد، وتكثيف العمل والنشاط، لتحمل مسؤولية الخلافة، والقيام بدور الإعمار والقيادة، لذا نجد بعض الأحاديث تحت على العمل لإعمار الأرض، وبعث الحياة في الوجود، كالحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله

وصحبه وسلم:) ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة((٢٩).

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها) (٣٠).
والعمل هو مضمار التنافس بين بني البشر، لتحديد مكانتهم في الدنيا والآخرة، فالقرب من الله تعالى، والفوز بجننته، ونيل رضاه، لا يتحقق إلا بالعمل الصالح، والتقدم في الدنيا، وإحراز المكاسب أيضاً لا يتأتى إلا عن طريق العمل.

فالعامل هو الذي يصنع واقع الإنسان في الدنيا والآخرة { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } (٣١)، { وَنُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (٣٢).
بل إن مهمة الحياة إظهار كفاءة الإنسان وجدارته، عن طريق التنافس العملي، يقول تعالى: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } (٣٣).
{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } (٣٤).

العمل: قوة ونشاط

حينما يعمل الإنسان ويتحرك، يبدو له وكأنه صرف من جهده وطاقته، واستهلك من قوته وراحته، وفي الحقيقة فإنه في ذات الوقت الذي أعطى فيه يكون قد أخذ أكثر مما أعطى. ذلك أن العمل والحركة مصدر قوة للنفس والجسم.

فعضلات الإنسان، وأجهزة جسمه، لا تتوفر على القوة بالخمول والاسترخاء، بل إن ذلك يصيب الجسم بالترهل، ويعرضه لمختلف الأمراض، وملحوظ في هذا العصر، كيف أن مجموعة من الأمراض المنتشرة، كالسمنة والكولسترول والسكر والروماتيزم وغيرها، مما يطلق عليه أمراض العصر، تنشأ من قلة حركة الإنسان وضعف نشاطه.

ومن الناحية النفسية: فإن العمل يملأ الفراغ النفسي، والذي يسبب الكآبة والضجر، ويرفع معنويات الإنسان، عبر شعوره بأن له دوراً وإنتاجاً، كما يجعله أكثر تفاعلاً مع الطبيعة والحياة والمحيط الاجتماعي.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (من يعمل يزداد قوة من يقصر في العمل يزداد فترة) (٣٥).

وعن التأثير النفسي للعمل يقول عليه السلام: (من قصر في العمل أبتلي بالهم) (٣٦).
وباعتبار ما ينتجه العمل من مكاسب للإنسان فإن تراكمها يعني المزيد من القوة في واقع الإنسان. وقد كان فلاسفة العصور الوسطى يقولون: إن للعمل مهمة مزدوجة لأنه لا

بد للعامل من أن يحقق شيئاً من جهة، كما انه لا بد له من أن يصنع ذاته حين يعمل من جهة أخرى، وحين تحدث موينير (Mounier) زعيم النزعة الشخصانية في فرنسا، عن أبعاد الفعل الأربعة، فإنه كان يعني أن الفعل يعدل من الواقع الخارجي ويصنع ذواتنا، ويقربنا من الناس، ويثري عالم القيم.

العمل في حياة الأنبياء والأئمة:

الأنبياء والأئمة عليهم السلام كانوا يفهمون الدين عملاً ونشاطاً، ويمارسون التدين كمنهج للكبح والحركة في هذه الحياة، وهم القدوات الذين يجب أن يتأسى بهم الإنسان المسلم.

كانوا يعرفون قدرهم وفضلهم عند الله تعالى، وكانت نفوسهم ممثلة بمعرفته والاعتقاد به، لكنهم لم يتكلموا على ذلك ولم يكتفوا به عن بذل الجهد وتحمل عناء العمل. فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (كان ليقوم — أو ليصلي — حتى ترم قدماه — أو ساقاه — فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وفي رواية: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً) (٣٧).

ورد أنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (كان ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو أغبر بطنه) (٣٨).

وحيثما يكون النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في بيته لم يكن يجلس متكئاً مستريحاً منتظراً خدمة أهله له، بل كان يشارك أهله الخدمة في البيت، فقد سألت السيدة عائشة زوجته عما كان النبي يصنع في أهله؟

قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة (٣٩). وفي رواية أخرى عن أم المؤمنين عائشة (يخسف نعله ويخيط ثوبه ويرقع دلوه) (٤٠).

وقد روت خديجة أم المؤمنين عليها السلام: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لما نزل عليه الوحي ترك كل راحة وكان يدأب ليل نهار في العبادة والعمل، فقلت له: يا رسول الله ألا تستريح ألا تنام؟ فقال: لقد مضى عهد النوم يا خديجة (٤١).

الإمام علي حركة دائمة:

والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو التلميذ الأول لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كانت حياته وسيرته تجسيدا للفاعلية والعمل والحركة في مختلف الأبعاد والمجالات.

فقد ورد أنه عليه السلام أعتق ألف مملوك من كد يده(٤٢).

ويقول عنه حفيده الإمام محمد الباقر عليه السلام: (كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يخرج في الهجرة في الحاجة قد كفاها يريد أن يراه الله يتعب نفسه في طلب الحلال)(٤٣).

ويتحدث الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن جده علي بن أبي طالب عليه السلام قائلاً: كان أمير المؤمنين عليه السلام يضرب بالمر – أي المسحاة – ويستخرج الأرضين(٤٤).

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يحتطب ويستقي ويكنس، وكانت فاطمة عليها السلام تطحن وتعجن وتخبز(٤٥).

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يخرج ومعه أحمال النوى، فيقال له: يا أبا الحسن، ما هذا معك؟ فيقول: نخل إنشاء الله فيغرسه فما يغادر منه واحدة(٤٦).

لذا لم يكن الإمام علي عليه السلام يأكل شيئاً من بيت المال بل كان طعامه نتاج زرعه وعمله، يقول عليه السلام: (إني أعيش على ما يأتي من يبيع وأستغني به عن بيت المال)(٤٧).

وتأكيداً لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: (كان علي عليه السلام لا يأكل مما هنا - من العراق - حتى يؤتى به من ثم - يعني الحجاز -)(٤٨).

وكان الإمام علي عليه السلام يقوم بشراء لوازم بيته بنفسه من السوق، ويحمل ما اشتراه بطرف رداءه، وذات مرة رآه الناس فتبادروا إليه وقالوا: يا أمير المؤمنين نحن نحمله. فقال: رب العيال أحق بحمله. وكثيراً ما كان يحمل التمر والملح بيده، ويقول: لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع إلى عياله(٤٩).

دروس في حب العمل:

وإذا كان عادة الرجال المرموقين أن يريحوا أنفسهم من عناء العمل في الظروف القاسية، فإن الواعين المؤمنين منهم لا يتركون الجد والكدح حتى مع صعوبة الظروف.

يقول محمد بن المنكدر: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني ابو جعفر (الباقر) محمد بن علي بن الحسين عليه السلام وكان رجلاً بادناً ثقیلاً، وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين، فقلت في نفسي: سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا؟ أما إني لأعظنه، فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي بنهر وهو يتصاب عرقاً.

فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا!! رأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحالة ما كنت تصنع؟ فقال: لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال، جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله عز وجل، أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف أن لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله عز وجل، فقلت: صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني (٥٠).

هكذا يقدم لنا الإمام الباقر عليه السلام درساً بليغاً في أهمية العمل لكل إنسان، مهما كان موقعه وشرفه، ومهما كانت الظروف المحيطة به.

وهناك قصة شبيهة تنقل عن ولده الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر، فقلت: جعلت فداك حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأنت تجهد نفسك ومثل هذا اليوم؟! فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك (٥١).

والعمل عند الأولياء ليس في حدود الحاجة، بل ضمن الإمكان والقدرة، فما دمت قادراً على العمل فعليك أن تعمل، وإن لم تكن محتاجاً لنتائج العمل، أو حتى وإن كنت لا تدرك نتاجه.

فعن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها) (٥٢).

ومعلوم أن تحول الفسيلة إلى نخلة مثمرة يحتاج إلى سنوات، لكن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يشجع من يرى قيام الساعة أن لا يتردد في غرس فسيلته، رغم أنه لن يستفيد منها شيئاً.

وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غداً.

فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها؟ فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي (٥٣).

وفي هذا السياق هناك رواية جميلة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فعن محمد بن عذافر عن أبيه قال: أعطى أبو عبد الله أبي ألفاً وسبعمائة دينار فقال له: إتجر لي بها، ثم قال: أما إنه ليس لي رغبة في ربحها وإن كان الربح مرغوباً فيه. ولكن أحببت أن يراني الله عز وجل متعرضاً لفوائده. قال: فربحت فيها مائة دينار ثم لقيته فقلت له: قد ربحت لك فيها مائة دينار. قال: ففرح أبو عبد الله عليه السلام بذلك فرحاً شديداً، ثم قال: أثبتتها لي في رأس مالي (٥٤).

ويشير الإمام الصادق عليه السلام إلى أن العمل له تأثير في إنضاج فكر الإنسان ورأيه، وفي تنمية إمكاناته وقدراته، حيث أعرب له أحد أصحابه وهو معاذ بن كثير، وكان تاجراً للألبسة، في رغبته ترك العمل في السوق، لاكتفائه المادي قائلاً: قد هممت أن أدع السوق وفي يدي شيء. فقال له الإمام جعفر: إذن يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء (٥٥).

وفي رواية أخرى سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام صاحبه معاذ بن كثير: يا معاذ أضعفت عن التجارة؟ أو زهدت فيها؟ قلت: ما ضعفت عنها ولا زهدت فيها. قال: فما لك؟ قلت: عندي مال كثير وهو في يدي، وليس لأحد علي شيء، ولا أراني آكله حتى أموت، فقال: لا تتركها فإن تركها مذهب للعقل (٥٦).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إني لأركب في الحاجة التي كفاينها الله، ما أركب فيها إلا لالتماس أن يراني الله أضحى في طلب الحلال، أما تسمع قول الله عز وجل: {فَإِذَا قُضِيَتُ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} (٥٧).

إن من يعزف عن العمل وتحصيل الإمكانيات فإنه يبرهن على افتقاده لصفة الخير في نفسه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال (٥٨).

كيف يعمل الآخرون؟

ليس هناك سر خفي، ولا لغز غامض، ولا عامل غيبي، ولا تأثير إعجازي، يكمن في التفاوت الكبير، والبون الشاسع، والهوة الواسعة التي تفصل بيننا كعالم ثالث أو دول نامية وبين العالم المتقدم، أو الدول الصناعية.

فنحن لا نعاني من نقص في العدد، ولا قلة في الإمكانيات والثروات الطبيعية، ولا نشكو من ضعف في القدرات الذهنية، ومستوى الذكاء، وامتلاك المواهب.

إذاً فلماذا تقدم الآخرون في ميادين العلم والصناعة والحضارة، وبقينا في أسر التخلف، وربقة التأخر؟

يقول الإمام علي عليه السلام في توبيخه لمن حوله على تخاذلهم، مقارناً لهم بتوثب أعدائهم وجرأتهم

ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبيكم؟ القوم رجال أمثالكم(٥٩).

بالطبع لا نريد هنا تسطيح المشكلة وتبسيطها، لكن فارقاً هاماً وواضحاً، يلفت نظر من يبحث ويتأمل التفاوت القائم بين واقعنا المتخلف، وواقع التقدم لدى الآخرين، وذلك الفارق الخطير هو مستوى الفاعلية والعمل، ومدى الحركة والإنتاج.

ففي البلدان المتقدمة هناك سباق محموم في ميدان العمل والحركة، فالثقافة والتعليم، والتربية والإعلام، والأنظمة والقوانين، وطبيعة الأوضاع الاجتماعية، كل ذلك يدفع نحو العمل والإنتاج، بينما في البلدان المتخلفة، تنخفض الفاعلية عند أدنى مستوياتها، وتتطافر مختلف العوامل والأسباب لإضعاف روح العمل، وتثبيط الهمم، وتحجيم الطموح، وعرقلة الحركة والنشاط.

ولنتأمل بعض الحقائق عن واقع العمل والفاعلية في المجتمعات الأخرى، ولنقارن ذلك بما نراه ونشاهده في مجتمعاتنا في العالم الثالث:

مثل من كوريا الجنوبية

أهم الخصائص التي ميزت كوريا الجنوبية، جدية مواطنيها ومثابرتهم على العمل، بدرجة هي مضرب المثل اليوم، حيث يعمل الناس هناك بلا كلل.

ولهذا لم يكن غريباً تعافي الاقتصاد الكوري من أزمته الخطيرة، التي ألمت بالبلاد وبصورة سريعة جداً، مقارنة بالدول المجاورة في جنوب شرق آسيا، التي أصيبت بحمى انهيار العملات، وهي الأزمة التي بدأت أولاً في تايلاند.

الشركات الكورية تعتبر عملاقة بالمقاييس الدولية وتبلغ مداخيلها حداً يتجاوز معظم ما تفاخر به الدول النفطية العربية.

أما عدد الأيام التي يتمتعون بها كإجازة سنوية فهي نحو عشرين يوماً.

إن كل ما تراه في كوريا من سيارات متعددة الأصناف، والأجهزة الكهربائية والإلكترونية، ومعظم ما تعرضه المتاجر، هو صناعة محلية وراقية أيضاً.

وهذا يقودنا إلى أنّ التعلل بالحجج الشائعة عربياً لم يفلح في تعطيل دولة مثل كوريا، فهي بلا ثروات طبيعية مربحة، وحجم الوجود الأمريكي على أراضيها لم يقلل من توجهاتها المحلية والخارجية، وسقوط عملتها في الأزمة الشهيرة لم يحمل على كتف آخر بل تحمّله الكوريون جميعاً(٦٠).

لقد خرجت كوريا من حرب ضروس مدمرة ومنقسمة على نفسها، وبشعب يعيش على زراعة الرز فقط، وليس عندها لا بترول، ولا مواد خام، كانت تصدر ما قيمته ٢٥ مليون دولار قبل ٣٠ سنة ولكنها صدرت قبل عامين ما قيمته ١٣٠ بليون دولار من المنتجات الصناعية(٦١).

اليابانيون يعشقون العمل

ذكر ميشيل البيرو وهو مفكر فرنسي، في كتابها الرأسمالية ضد الرأسمالية المطبوع في مصر عام ١٩٩٢م إحصائية عن اليابان تقول:

إنّ ١٠% من الذكور البالغين الذين يموتون في اليابان كل عام يقتلون أنفسهم بكثرة العمل" ويحصل اليابانيون على أسبوع واحد إجازة في السنة.

واقترحت الحكومة اليابانية تخفيض ساعات العمل من ٤٤ ساعة إلى ٤٢ ساعة أسبوعياً ولكن الأكثرية من الشعب تخالف هذا الاقتراح.

وكثير من الكتاب يشيرون إلى ظاهرة العمل مدى الحياة العملية للفرد في مؤسسة واحدة في اليابان، فاستمرارية العمل لسنين طويلة في المؤسسة، أمر ضروري لمن يريد أن يحقق لنفسه مستقبلاً وظيفياً مناسباً..

وقد لوحظ أن خبرة خمس سنوات فقط في مؤسسة معينة، لا تعتبر خبرة بأي حال من الأحوال، خصوصاً إذا أراد الموظف أن ينتقل للعمل في مؤسسات كبيرة وهو لا يملك خبرة طويلة، فإنه من العسير عليه إيجاد العمل في مؤسسات منافسة. فهو إما يقبل الانتقال إلى مؤسسات صغيرة، أقل مستوى وغير معروفة، أو القيام بعمل فردي خاص. والحقيقة أن المجتمع لا يشجع هذا السلوك، ويفسره بعدم مقدرة الفرد على التحاور والتأقلم مع المجموعة والمؤسسة التي تركها.

ولقد أشارت بعض المراجع أن مفهوم العمل اجتماعياً بما يتعلق بالموظفين الجدد، يعني مناسبة اجتماعية وأسرية يستحق فيها الاحتفال من قبل الشركة، ومشاركة أسر الملتحقين الجدد. ولأن التوظيف في الشركات يكون موسمياً ولأعداد كبيرة، فإنّ الأسر تعتبر الفرحة معادلة إلى فرحة التخرج من الجامعة، كما هو متعارف عليه في الدول الأخرى.

ولما كان العمل منذ بدايته يشكّل حدثاً يستحق الاحتفال به، فإن استمرارية العمل تبرهن على استقرار العامل وانصهاره في بوتقة المؤسسة. هذا يعني أن العامل والمؤسسة والأسرة عبارة عن نسيج متكامل لا فرق بين هذا وذلك وتلك.

وإن الموظف لا ينطلق من منطلق أنه يعمل من أجل بناء أسرته أو رفاهية أبنائه كما يقول البعض، ولكن أيضاً من أجل نجاح وبناء المؤسسة التي يعمل بها، وتحقيق نموها الاقتصادي" فيصبح العمل خبرة ومورد رزق وهواية" ووقت العمل ليس تكليفاً من المؤسسة، وإنما انسجام من الموظف مع هواية تحقق الهدف والإنجاز.

اليابان عبارة عن جزر محاطة بالمحيطات وقسوة جغرافية من كل مكان. شمالاً تنتهي بما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي وسيبيريا، حيث البرد والصقيع وندرة وجود الإنسان، الصين قريبة غرباً وهي بلاد كبيرة عامرة بزخم بشري وحضاري، وتتطلع إلى التوسع في كل اتجاه إن أرادت كدولة كبرى، وكذلك الأمر بالنسبة لروسيا أو الاتحاد السوفيتي سابقاً نستطيع القول أن اليابان كان لها جار ولكن يستبعد أن يكون جاراً صديقاً ودوداً على مرّ العصور. أما الجهات الأخرى فامتداد المحيطات، حيث تتنافس زوابع البحر وأمواجه مع جزر اليابان من كل اتجاه. إذا أضفنا إلى ذلك ما يزيد على المائة والعشرين مليون، وقلّة المصادر الطبيعية، نعرف من هذا المسح السريع أن هذا الزخم الاجتماعي في صراع شديد مع البيئة، وفي حوار عنيف مع المصادر الطبيعية. الكثافة السكانية التي قررت أن تعيش وبمستوى متقدم في ذلك المكان، يجب عليها أن تعمل وتعمل من أجل تحقيق مستوى العيش الكريم(٦٢).

أعداؤنا عبرة لنا

شراذم من اليهود اجتمعوا من أنحاء مختلفة من العالم، ليغتصبوا أرضاً ليست لهم، وطردوا منها أهلها بقسوة وبشاعة، ثم أشادوا لهم كياناً عدوانياً سموه إسرائيل ، واستخدموا كل أساليب المكر، لجلب أشباههم من شتى البلاد، وبالكاد وصل عددهم إلى حوالي ٥ مليون نسمة، يعيشون في محيط عربي وإسلامي كبير يناهز عمقه الإسلامي أكثر من مليار وربع المليار من البشر، كلهم ينظرون إلى شراذم اليهود المحتلين الغاصبين نظرة الرفض والكراهية والعداء، وليس في الأرض التي احتلوها-فلسطين- إمكانيات وثروات مادية متميزة..

لكن هؤلاء اليهود، رغم حداثة دولتهم المصطنعة، والتي لا يزيد تاريخها على نصف قرن من الزمن، ورغم أنهم خليط غير متجانس، وأن الظروف المحيطة بهم قلقة غير مستقرة، إلا أنهم استطاعوا أن يجعلوا من كيانهم قوة ترهب دول المنطقة، وتسعى للهيمنة عليها، وحققوا تقدماً وتطوراً علمياً وصناعياً وإنتاجياً مدهشاً.

صحيح أنهم مدعومون من الشرق والغرب وخاصة أمريكا، ولكن الأصح أن هذا الدعم لم يأت لسواد عيون اليهود، وإنما لأنهم فرضوا أنفسهم بفاعليتهم ونشاطهم، ومن يقرأ عن دور اللوبي الصهيوني في أمريكا وروسيا وأوروبا يدرك هذه الحقيقة، كما أنهم بفاعليتهم استوعبوا هذا الدعم، وترجموه إلى بناء قوي، ووظفوه بأقصى حد ممكن في تثبيت وجودهم العدوانى.

لقد سرقوا وغصبوا قطعة أرض صغيرة ولكنها مقدسة غالية وعزيزة، من أرض الإسلام الكبيرة الواسعة المترامية الأطراف، ثم أشادوا عليها بناءً قوياً متقدماً بالعلم والحركة والنشاط، بينما تعاني الكثير من أراضي المسلمين وبلدانهم من التأخر والضعف والتخلف.

فكيف يعمل الغاصبون الدخلاء بفاعلية ونشاط في أرض ليست لهم؟ وكيف يتقاعس المسلمون في أوطانهم؟.

تقول إحدى الإحصائيات المؤلمة: إن دخل إسرائيل القومي بلغ عام ١٩٩٤م (٧٨.١) بليون دولار، وعدد سكانها (٥.٤) مليون نسمة، بينما يصل عدد سكان مصر وسورية والأردن والفلسطينيين إلى (٨٣.٣) مليون نسمة، لكن دخلهم جميعاً يقل عن دخل إسرائيل!!.

وبعد أن كانت إسرائيل ولعدة عقود تعد دولة نامية، تتلقى مساعدات مالية دولية، أصبحت ومنذ العام ١٩٧٦م أي بعد حوالي ٢٨ سنة من تأسيسها- تعتبر دولة متقدمة غير مستحقة لقروض البنك الدولي.

وقد وصل معدل الناتج الإجمالي للفرد الإسرائيلي عام ١٩٩٥م إلى (١٦.٠٠٠) دولار أمريكي، وهو رقم مقارب لبريطانيا البالغ (١٨.٧٠٠) دولار.

وفي عام ١٩٩٧م وحسب تصريحات وزير المالية الإسرائيلي، فقد وصل الناتج المحلي الإجمالي للفرد في السنة إلى (١٧.٠٠٠) دولار، بعد فترة نمو كبيرة خلال الفترة ١٩٩٠-١٩٩٦م وصل إلى ٦% بسبب التوسع في المجالات ذات القيمة المضافة العالية التقنية إجمالاً والإلكترونيات بشكل خاص.

وهناك حالياً أكثر من (١٠٠) شركة إسرائيلية مدرجة في بورصة (ناسداك) في نيويورك في أمريكا، المشهورة بشركات التقنية العالية، مما يجعلها الدولة الأولى في عدد الشركات المدرجة في الولايات المتحدة الأمريكية (٦٣).

الزعامة الأميركية

الزعامة الأميركية (Elizabeth Cremieu Le Leadership Amirican Dunod)، ذلك هو عنوان كتاب صدر عام ١٩٩٨م ويحتوي الكتاب

على عدد ضخم من الإحصائيات والحقائق التي تتحدث عن التقدم العلمي والتكنولوجي والحضاري لأمريكا، مما يظهر سر تفوقها وهيمنتها العالمية، وحتى لو أخذنا بعين الاعتبار، ما قد يهدفه الكتاب من الدعاية والترويج للزعامة الأمريكية، فإن ما فيه من أرقام ومعلومات، تتطابق مع ما هو واضح ومعروف لحالة التقدم والتفوق الأمريكي، وموضع العبرة من ذلك هو أن الأمريكيين إنما احتلوا هذه المكانة بالفاعلية والعمل، وهي نقطة قوة قابلة للاكتساب.

ومن الإحصائيات والمعلومات التي أوردها الكتاب ما يلي:

من أصل ٤٥٠ جائزة نوبل علمية منحتها الأكاديمية السويدية بين ١٩٠١م إلى ١٩٩٦م حظي العلماء الأمريكيون وحدهم بـ ١٨٧ جائزة.

والزراعة الأمريكية هي الزراعة الأولى في العالم. وعلى الرغم من أنها لا تمثل سوى ٢.٥ في المائة من الناتج القومي الأمريكي ولا تشغل سوى ٢.٧ في المائة من اليد العاملة الأمريكية، فإن حصتها من الناتج العالمي من الصويا تصل إلى ٤٨.٩ في المائة، ومن الذرة ٤٠.٣ في المائة، ومن القطن إلى ١٩.٤ في المائة، ومن القمح إلى ١٠.٧ في المائة. وعلى الرغم من أن السوق الداخلية تستهلك أكثر من ٨٠ في المائة من الإنتاج الزراعي، فإن المزارعين الأمريكيين هم أول المصدرين في العالم، ففي ١٩٩٦ بلغت حصتهم من الصادرات العالمية من الذرة ٧٥ في المائة، ومن الصويا ٦٩.٨ في المائة، ومن القمح ٢٨.٣ في المائة، ومن القطن ٢٨.١ في المائة.

وعلى الرغم من أهمية الصادرات الزراعية والزراعية الغذائية الأمريكية، التي بلغ حجمها في ١٩٩٥ أكثر من ٥٠ بليون دولار، فإنها لا تشكل سوى ١٠ في المائة فقط من إجمالي الصادرات الأمريكية" فالصادرات الأميركية تبقى صادرات صناعية في المقام الأول أكثر من ٨٠ في المائة.

فالشركات الأميركية تتحكم بـ ٥٠ في المائة من السوق العالمية للألياف البصرية، و٧٣ في المائة من صادرات الصناعة المعلوماتية، و٧٥ في المائة من مبيعات المعدات الفضائية وصناعة الطيران المدني والعسكري.

ومنذ ١٩٩٠ لا تفتأ الصادرات الأميركية من التكنولوجيا العالمية تسجل تقدماً مطرداً، فحجم المبيعات الأميركية في هذا المجال ارتفع من ١٠٥ بلايين دولار عام ١٩٩٢ إلى ١٣٨ بليوناً عام ١٩٩٥، وقد بلغ رقم أعمال شركة (I.B.M) للحواسيب الإلكترونية وحدها ٧٨.٥ بليون دولار في ١٩٩٦م.

فالولايات المتحدة تسيطر اليوم على ٤٠ في المئة من السوق العالمية للاتصالات، وقد درت هذه السوق في ١٩٩٦ وحده أكثر من ٤٤٠ بليون دولار، وتتحكم الاستوديوهات

الأميركية بنحو من ٨٠ في المائة من الصور المبتوثة في العالم، وقد ارتفعت حصة الأفلام الأميركية في السوق الأوروبية من ٥٦ في المائة عام ١٩٨٥ إلى ٧٦ في المائة عام ١٩٩٤، وهذا على الرغم من تدابير الحماية التي اتخذتها في هذا المجال بعض البلدان الأوروبية، وفي مقدمتها فرنسا التي لا يتردد بعض المسؤولين فيها في الحديث عن إمبريالية ثقافية أميركية .

وفي الوقت الذي تهيمن فيه الشركات الأميركية على ٨٠ أو حتى على ٩٠ في المائة من السوق العالمية للفيديو والصورة المتلفزة، فإنها تمارس هيمنة غير قابلة للقياس الكمي على سوق الكلمة المقروءة، فالوكالة الصحافية الأولى في العالم هي الاسوشيتدبرس الأميركية، وهذه تزود بالأنباء والصور ١.٦٠٠ صحيفة يومية و ٥.٩٠٠ محطة للراديو والتلفزيون في مختلف أنحاء العالم، وقد غدت الصناعة الإعلامية واحدة من أقوى عشر صناعات في الولايات المتحدة، وفاق رقم أعمالها ٢٢٠ بليون دولار في ١٩٩٤، وهي تحقق ٤٧ في المائة من هذا الرقم في البلدان الأجنبية، في الوقت الذي لا تستورد فيه الولايات المتحدة من الخارج سوى ٢ في المائة فقط من استهلاكها الإعلامي.

على أن الزعامة الثقافية الأميركية ليست محض زعامة إعلامية، فالولايات المتحدة الأميركية تستقبل في جامعاتها ومعاهدها العليا نحواً من ٤٥٠ ألف طالب أجنبي، وهذا العدد يتجدد سنوياً بمعدل ١٠٠ ألف طالب، وفي الوقت الذي تمارس فيه تأثيرها الثقافي من خلال هذه النخب التي تبتث عند عودتها إلى أوطانها طرائق التفكير والعمل الأميركية، فإنها تستفيد أيضاً من مساهمة هذه النخب لتطوير بنيتها الثقافية الداخلية، فعشرات الآلاف من الطلاب الأجانب المتخرجين سنوياً في الجامعات الأميركية يختارون البقاء الدائم في الولايات المتحدة، وإذا أضفنا إلى ذلك سياسة الهجرة المفتوحة تجاه الباحثين والعلميين الأجانب المتفوقين، فإنّ الولايات المتحدة يمكن أن تعد بحق المستفيد الأول من ظاهرة هجرة الأدمغة في العالم المعاصر.

وأخيراً يكفي أن نعلم أن سكان أمريكا أقل من ٥ من سكان العالم، لكنهم ينتجون ٢٥ من نتاج العالم كله من السلع والخدمات.

صور من الماضي القريب

ما نراه من تقاعس عن العمل، وميل إلى التراخي والكسل، عند بعض شباننا، هل هو حالة موروثية عن الآباء والأجداد؟

وهل كانت الأجيال الماضية في بلادنا تعيش حالة الدعة والرفاه والعيش الرغيد، بحيث لم يتعودوا على مشاق العمل وعناء الكد وطلب الرزق؟

إن الحياة الحديثة في مجتمعنا بما فيها من رفاه ورخاء، إنما هي حالة مستجدة لا يزيد عمرها على نصف قرن من الزمن، وبالتالي فنحن نعاصر رجال ما قبل هذه الفترة من آباء وأجداد، وعلينا أن نستتقهم ليحدثونا عن أوضاع الفترة السابقة، وكيف كانت ظروفها تفرض عليهم الكدح والنشاط، وتدفعهم إلى تحمل الصعوبات والمشاق، فكانوا في مستوى تحدي الأوضاع القاسية المحيطة بهم، بل وبنوا لأنفسهم ومجتمعهم مكانة مناسبة متميزة في بعض جوانبها الاقتصادية والاجتماعية. فكانوا مجتمعاً متحضراً، فيه حركة علمية وأدبية، وله إنتاج زراعي وفرّ له درجة من الاكتفاء الغذائي الذاتي، ونشاط تجاري جعله مركزاً لما حوله من مجتمعات البادية والأطراف.

وننقل عن حديث لأحد أدبائنا المخضرمين (٦٤) بعض صور الكدح والنشاط من الماضي القريب لمجتمعنا، لتكون عبرة لأبناء هذا الجيل، ودافعاً لهم إلى ترسم طريق الآباء والأجداد، في بناء كيان مجتمعهم، وتعزيز مكانة بلادهم عبر النشاط الجاد، والعمل المكثف، وخلفية الأمانة والإخلاص والالتزام.

كان العامل في الفلاحة يبدأ عمله منذ ساعات الصباح الأولى وقت ظهور الشمس حتى آخر النهار عند الغروب ولم يكن مقيداً بساعات محدودة للعمل، سواء كان يعمل لنفسه، في أرضه أو البستان الذي كان متضمناً إياه، أو كان أجيراً، فتراه منكباً على عمله طيلة النهار، لا يستريح إلا لدقائق، لتناول بعض اللقيمات، وهي لا تتعدى فردات من تمر أو رطب مع بعض اللبن والخبز، ثم يواصل انكبابه على عمله بالمسحاة (الصخين) إن كان يعمل في عمارة الأرض وقلب تربتها، أو تراه حاملاً للكر أداة الصعود على النخلة يتنقل من نخلة لأخرى، إذا كان يعمل في النخل من تنبيت، وتحدير، وجذاذ، وغيره (٦٥)، وعلى العموم فإن الفلاح يظل يومياً وعلى مدار العام يعمل طيلة نهاره ليوفر له ولأسرته لقمة العيش التي لا ينالها إلا ببذل الجهد الشاق، وعرق الجبين، وليس الرجال وحدهم هم الذين يكدحون، فالمرأة الفلاحة هي الأخرى تكدح طوال يومها، فهي بالإضافة إلى مسؤوليات البيت من تربية الأطفال والطبخ وإعداد الفراش للزوج والأولاد تقوم بإطعام البقر وحلبها، وخض الحليب لاستخراج الزبدة منها، كما تقوم بقطف الثمار من الشجر، ولم ما يتساقط من النخل من رطب وتمر، ويسمى السقاط كما تقوم البعض منهن بحمل الثمار والذهاب بها للسوق وبيعها، وشراء ما يحتاجه البيت من رز وإدام وغيره، بل وشراء الملابس لها ولزوجها وأولادها، كما تقوم المرأة بإيصال الرطب طوال فترة

الصيف لبيت مالك النخل، وكذا إيصال الدهن أيام الخميس لأسابيع عديدة من العام، وإيصال الحليب وغيره طوال شهر رمضان.

لقد كانت حياة الفلاح منذ نعومة أظفاره وحتى شيخوخته كلها كد، وكدح، وعرق. وهناك فئة أخرى من العمال الذين يمكن إلحاقهم بفئة الفلاحين هم الذين يعملون على وسائل النقل من الدواب آنذاك سائقو الحمير أو من كانوا يسمون الحمارة فهؤلاء لا يلقون عناءً وتعباً عن إخوانهم الفلاحين، فهم أيضاً منذ الصباح الباكر وحتى الغروب يسيرون جيئةً وذهاباً وراء حميرهم التي تنقل مختلف أنواع البضائع، فهم الذين يحملونها من على الأرض ليضعوها على ظهور حميرهم وهم الذين يقومون بإنزالها من على ظهور الحمير، ووضعها في أماكنها المخصصة لها.

وهناك أيضاً فئة عمال البناء، إنهم أيضاً غير مقيدين بساعات محددة، إذ أن العمل يبدأ منذ طلوع الشمس حتى غروبها، سواء كان الوقت صيفاً أو شتاءً، وهم يقومون بتكسير الحجارة ونقلها من محلها إلى محل البناء على أكتافهم ورؤوسهم، ويركبون بها الدرج إذا كان البناء يتكون من عدة أدوار، كما أنهم ينقلون الجص والرمل وغيره.

أما المصدر الثاني البحر فإن العمل فيه ينقسم إلى عدة أقسام، فهناك الغوص، وهناك صيد السمك، وهناك من يعملون في سفن نقل البضائع بين موانئ الخليج، وكل هؤلاء يعتمدون في عملهم على طاقاتهم البدنية، إذ ليس لديهم أي وسائل حديثة تساعدهم على تسيير السفن التي يعملون فيها، فالغواصون وهم قسمان، الغيص، والسيب، فالغيص هو الذي ينزل في عمق البحر ليقطف المحار، وهم يتعرضون لأخطار الأسماك الكبيرة التي تلتهم الإنسان، كالحيتان الجراحير جمع جرجور وغيرها، والسيب، وهو الذي يجلس على ظهر السفينة ممسكاً بالحبل الذي يرتبط به الغيص، ليجره من البحر رافعاً إياه للسفينة عند ما يعطيه الإشارة، ويعمل الغواصون طوال خمسة شهور الصيف، ويبقون أحياناً طوال شهر أو أكثر في البحر، وطعامهم السمك والتمر وربما الرز.

أما الذين يعملون في صيد الأسماك فهم أيضاً يبذلون جهوداً جبارة عند ما يلقون بمصائدهم شباك الصيد (الشقة) ليقوموا بسحبها ورفعها إلى السفينة عندما تمتلئ بالأسماك، أو الذين يذهبون للصيد بشباكهم يحملونها على ظهورهم، ويخوضون بها البحر، وليس لديهم سفن أو قوارب، بل يحملون بالإضافة إلى شبك الصيد الجراب ليضعوا فيه الصيد، وهناك من يقومون بجمع الأسماك ونقلها من مصائد الأسماك المبنية في البحر الحضور (جمع حضرة) حيث يذهبون إليها عندما يبدأ البحر في الجزر ليجمعوا ما بداخل هذه المصائد من أسماك.

إن كل هذه الأعمال سواء كانت فلاحية أو عمل في البحر أو عمل في نشاطات أخرى كلها كانت تعتمد على جهد الإنسان وطاقته وقواه البدنية.

وحتى عندما ظهر البترول وتوفرت مجالات العمل وتحول قسم كبير من العمالة للعمل في مناطق البترول لم يكن العمل مريحاً ولا سهلاً في العقود الأولى من مجيء شركة الزيت، بل كان متعباً وشاقاً.

فعندما بدأ العمال يتوجهون لمنطقة العمل الظهران لم تكن وسائل النقل متوفرة، فبعضهم وهم القلة كان يذهب للظهران راكباً الحمير، أما الأكثرية فيذهبون مشياً على الأقدام، مسافة تزيد على الثلاثين كيلومتر، وحتى بعد أن التحق العديد منهم بالشركة وسكنوا الحَجَر التي بنتها لهم الشركة في الحي السعودي (سعودي كمب) كانوا يعانون الأمرين في الذهاب والإياب من وإلى العمل، فقد كان على العامل الذي يقطن في هذا الحي أن يستيقظ مبكراً ويذهب ماشياً من الحي إلى منطقة العمل، بحيث لا تحل الساعة ٧ صباحاً إلا وهو في محل عمله، ثم يعود للغداء لمدة ساعة ونصف، هي للطريق ذهاباً وإياباً وللتناول الغذاء، وبعدها وفي الساعة ٥ عصراً يعود لحجرتة، وهكذا على العامل أن يمشي أربعة أشواط يومياً صاعداً ونازلاً ولمسافة غير قليلة، يعاني لهب الصيف القاتل، أو زمهرير الشتاء القارس، وحتى الحجر رغم أنها مزودة بالكهرباء إلا أنها ليست مكيفة، بل فيها مراوح سقفية، لكن هذه المراوح لا تجدي شيئاً عند حرارة الظهر، إذ كانت الحجر مبنية على شكل بلوكات - لينات- وفي الساحة خارجها أكوام الرمال تذروها الرياح داخل الغرف إذا ما ظل الباب أو النافذة مفتوحين، ومع كل هذا العناء فقد تحمل الأوائل من عمال أرامكو المشقة والعناء، وقامت على سواعدهم وأكتافهم منشآت الشركة وأعمالها، وكانوا مثلاً للإخلاص وبذل الجهود في عملهم...

إتقان العمل

لا تقف المعادلة عند حدود أن تعمل أو لا تعمل، فمتطلبات الحياة ومستلزماتها تفرض عليك حداً من العمل والحركة، لكن المعادلة الأصعب والأعمق تكمن في التنافس على مستوى العمل ودرجة إتقانه.

فالسباق والتنافس الشديد بين دول العالم اليوم ليس في مجال القدرة على الإنتاج أو كمية الإنتاج فحسب، وإنما الأهم من ذلك هو السعي للتفوق في الجودة والإتقان. وبذلك استطاعت بعض الصناعات اليابانية منافسة مثيلاتها من المنتجات الأمريكية في داخل أسواق أمريكا.

وإذا كان التنافس في الماضي يتم ضمن رقعة وحدود معينة، فإنه الآن يجري على مستوى العالم والذي أصبح قرية واحدة. فالمنتج لا يقارن اليوم بأمثاله على مستوى منطقة إنتاجه، بل يدخل معركة التنافس مع ما يشاكله من مختلف بلدان العالم. من هنا تبرز أهمية تأكيد القرآن الكريم على الارتقاء بالعمل إلى المستوى الأفضل والأحسن، وليس مجرد أداء العمل في أي مستوى كان.

١- فالإنسان في هذه الحياة جاء ليواجه تحدي التفوق والتقدم يقول تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } (٦٦) {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } (٦٧).

٢- وحينما يريد الإنسان المؤمن أن يقدم أفكاره ومعتقداته للآخرين، ويعرضها عليهم، فعليه أن يجتهد في اختيار أفضل أسلوب، وأحسن طريقة للطرح والتقديم، وإلا فإن عرضه سيكون ضعيفاً غير مقنع، أو سيئاً منفراً. يقول تعالى: { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (٦٨).

٣- وإذا تحمل الإنسان مسؤولية الإشراف على ثروة يتيم قاصر، فعليه أن يتوخى إدارة أمواله بأفضل نحو ممكن للحفاظ عليها وتميئتها يقول تعالى: { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (٦٩).

٤- وتخطب الإنسان مع من حوله، وكلامه لهم، لا ينبغي أن يأتي كيفما اتفق أو من وحي الانفعالات والأحاسيس، وإنما يجب أن يختار الإنسان أجمل الكلمات، وأنسب المعاني في تحدّثه مع الآخرين، يقول تعالى: { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (٧٠).

٥- ومجمل تعامل الإنسان وتعاطيه مع الآخرين، عليه أن يجتهد لجعله في أرقى مستوى، وأفضل صيغة، مهما كانت مواقفهم نحوه، يقول تعالى: { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (٧١).

٦- ولتركيز قيمة الإتقان، والارتقاء بالعمل إلى أفضل مستوى، فإن القرآن الكريم يؤكد على ثبوت هذه الصفة للفعل الإلهي، وما على الإنسان إلا أن يتأمل في عظمة خلق الله تعالى، ليرى أن كل شيء صنعه الباري جل وعلا، فهو في غاية الكمال والإتقان. يقول تعالى: { صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } (٧٢) {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (٧٣) {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} (٧٤) {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (٧٥). وبلغة واثقة حاسمة يتحدّى القرآن الكريم أبناء البشر، على مدى أجيالهم الصاعدة، وتقدم مستوياتهم العلمية والتكنولوجية، أن يجدوا ثغرة أو نقطة ضعف أو خلل في كمال وجمال آفاق هذا الكون البديع، والذي تخضع كل ذرة فيه لنظام متقن رصين. يقول تعالى:

{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} (٧٦).

مقاييس الجودة والإتقان:

للتنافس الشديد على تسويق المنتجات، وللاهتمام العالمي بمسألة الجودة والإتقان، أصبحت هناك أنظمة ومؤسسات لتحديد مواصفات الجودة، وتقدير مدى انطباقها على أي منتج من المنتجات. ويوجد الآن ما يعرف بـ(إيزو ٩٠٠٠) وهو نظام للمواصفات القياسية في الجودة.

ومن الدول المتقدمة في الاهتمام بالتدقيق في المواصفات القياسية للجودة هي اليابان، ويذكرون أن هذا الاهتمام عندهم مر بثلاث مراحل تاريخية:

المرحلة الأولى: من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٦٥م وهي التي ركزوا فيها على الجودة النسبية، بالتقليل من نسبة الخطأ والثغرات في المنتج، فمثلاً في إنتاج السكر، يكون التفاؤل بخفض أكبر نسبة للشوائب فيه، بحيث تصبح نسبة الشوائب ١٠% أو ٥% أو ما أشبهه. فالمصانع تتنافس على تقليل نسبة الخطأ.

المرحلة الثانية: من عام ١٩٦٥ إلى ١٩٧٥ م انتقلوا لمرحلة انعدام الخطأ، بحيث يكون المنتج سليماً ١٠٠%.

المرحلة الثالثة: ما بعد ١٩٧٥ م وهي مرحلة الجودة النوعية، حيث تتنافس المنتجات على إحراز أكبر قدر من الميزات الإضافية.

إن خلوص العمل من الخلل والنقص هو الحد الأدنى لإتقانه وجودته، لكن هناك مستويات ومقاييس أخرى، تؤخذ الآن بعين الاهتمام والاعتبار، ومنها مدى سرعة الإنجاز، فقد تجد أمامك خيارات عديدة لتصنيع منتج معين، أو إنشاء بناء أو مشروع، وقد تتساوى عروضها من حيث المواصفات والتكلفة، لكنها تتفاوت في جانب توقيت الإنجاز والإكمال، فيكون لذلك دخل في ترجيح الأسرع والأقل استهلاكاً للزمن.

كما أصبح التطوير، وإضافة المزيد من الامتيازات، مضمراً للتنافس على الجودة والإتقان، في مختلف مجالات العمل والإنتاج.

كيف نتعامل مع العمل؟

في بلداننا تنفق ميزانيات ضخمة، وتصرف أوقات كثيرة، وتستهلك جهود طائلة، على القيام بمشاريع، وأداء أعمال، من قبل القطاع العام والخاص، لكن الملحوظ غالباً هو

ضعف الاهتمام والعناية بجودة العمل وإتقانه، لذلك تكثر الثغرات والخلل في المشاريع، ويتأخر إنجازها، كما لا تحقق العديد من الأعمال النتائج المرجوة منها، وتفشل بعض المنتجات في ميدان منافسة البضائع المستوردة.

فقد نصرف ميزانية كبيرة على رصف شوارع وطرق لا تلبث أن تصبح متشققة محفّرة.. وقد بنى عمارة أو بيتاً بمبلغ ضخم، لكنه بعد فترة بسيطة تظهر فيه العيوب والنواقص.. ونقرأ مثلاً في الجرائد المصرية بين فترة وأخرى عن انهيار بعض العمارات والعقارات التي لم يمض على إنشائها إلا فترة قصيرة.. وتكثر الأخطاء الطبية في العديد من مستشفياتنا ومؤسساتنا الصحية.. وهكذا نعاني في مختلف المجالات من تدني مستوى الإنتاج والعمل، وإن كنا لا نستطيع التعميم، فهناك محاولات وتجارب رائدة يفخر بها، إلا أنها محدودة في مقابل الحالة العامة السائدة في بلدان العالم الثالث. إن أكثرنا ينجز العمل كيفما اتفق، دون أن يهتم بالجودة والإتقان.

ولعل من أبرز الأسباب والعوامل التي تتركس هذه الحالة ما يلي:

١. ضعف الرغبة الإخلاص: حيث يقوم البعض بعمله وكأنه مكره عليه، ومضطرب إليه، فلا يتوفر لديه اندفاع ورغبة داخلية لأداء العمل، فيمارسه بتثاقل وكسل، وكما قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (الكسل يضرّ بالدين والدنيا)(٧٧). وقال عليه السلام: (عدو العمل الكسل)(٧٨) ويذم الله تعالى المنافقين على صلاتهم، لأنهم لا يؤدونها بإخلاص واندفاع، بل بتثاقل وكسل، يقول تعالى: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى} (٧٩). إن الإنسان في عمله يصرف من جهده ووقته، فلماذا يستهين بما يستهلك من ذاته؟ ولماذا يقبل بإضاعة طاقته وجهده في مستوى متدن هابط؟ حقاً إن من يحترم نفسه يحترم عمله، وإن من يقدر جهده ووقته يهتم بإتقان أدائه وإنتاجه.

وفي نظر الإسلام فإن العمل والكدح لإدارة شؤون الحياة أمر مقدس، وهو في درجة العبادة، بل درجة الجهاد في سبيل الله، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله)(٨٠).

وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك استقبله سعد الأنصاري فصاحه النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ثم قال له: ما هذا الذي أكتب يديك (أي أحسنها)؟ قال: يا رسول الله أضرب بالمرّ والمسحاة

فأنفقته على عيالي، فقبل يده رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وقال: هذه يد لا تمسّها النار(٨١).

إن الموظف والعامل ورجل الأعمال والعالم والخطيب حينما ينطلق إلى عمله بعشق ورغبة، فسيتعامل معه بإخلاص، ويؤديه بجودة وإتقان.

ضعف الوعي الاجتماعي والوطني: كلنا نمارس النقد، ونظهر التذمر من المستوى المتدني للإنتاج، وأداء الأعمال في مجتمعاتنا، لكننا في الواقع نتذمر من أنفسنا، وندين سلوكنا، لأننا شركاء في صنع هذه الحالة العامة، كل في موقعه، ومن خلال دوره وعمله. سمعت مرة بعض المواطنين يشكون من تقصير أحد الموظفين في إنجاز أعمال المراجعين، واتفق بعد فترة أن رأيت ذلك الموظف نفسه يعلن الشكوى والانزعاج من موظف احتاج هو إلى مراجعته في موقع آخر، فقلت: سبحان الله ما للواحد منا يشعر بتقصير الآخرين نحوه ولا يشعر هو بتقصيره تجاه الآخرين؟ يرى الخلل حينما ينعكس على مصلحته المباشرة ويتجاهله حينما يضر بمصالح الآخرين؟

إن الإصلاح والتغيير في أوضاع مجتمعاتنا، يبدأ من كل فرد منا، لأن كل واحد يؤدي دوراً ما، فإذا أتقن دوره يكون قد أسهم في معالجة جزء من الخلل، ويصبح نموذجاً للآخرين ومشجعاً لهم على ذلك.

غياب المحفزات: فالمجتمعات التي تهتم بالجودة والإتقان، تخضع لقوانين عادلة موضوعية، تقدر الكفاءات، وتحترم الجهود والعطاء، وتقدم المحفزات وعناصر التشجيع للمتفوقين، والأكثر عطاءً وإتقاناً. وذلك عامل مهم للتطوير والتقدم.

أما حينما تسود معادلة المحسوبيات، والتمييز بين الانتماءات والولاءات، وينفشي الفساد الإداري، فسوف يكون ذلك على حساب الكفاءة والتطوير. وسيضن العامل بجهده وطاقته إذا لم يجد التقدير والمكافأة، أو رأى أن عطاءه يجير لصالح رؤسائه ومسؤوليه.

انعدام الرقابة والتقويم: لأن التسرر على الأخطاء، وغض الطرف عن الثغرات والنواقص، وسيادة أجواء المجاملة والمحابة، كل ذلك يكرس حالة الإهمال والاسترسال، واستمرار التدني في العمل والإنتاج.

إن لمؤسسات الرقابة والتفتيش، ووسائل الإعلام، ومناخ التنافس الحرّ، ووعي الناس الذي يدفعهم للتقويم والتمييز بين منتج وآخر، وبين طرح وآخر، إن لذلك أثراً واضحاً في تسليط الأضواء على مكامن النقص والخطأ، والدفع باتجاه المعالجة والتصحيح.

فعالم الدين والخطيب والموظف والعامل وسواهم، إذا شعر كل واحد منهم بأن دوره وإنتاجه يخضع للتقويم والمناقشة، وأنه يشكر ويقدر إذا أحسن وأتقن، ويحاسب ويعاتب إذا أساء وقصر، فإنه سيكون أكثر اهتماماً ورعاية لمستوى عمله وإنتاجه، أما إذا لم يلحظ شيئاً من ذلك، وأن " كل شيء يمشي " حسب التعبير المتداول. فالنتيجة المتوقعة هي هذه الحالة السائدة.

تأثير الأجواء العامة: حينما يعيش الإنسان ضمن محيط سليم، يخضع للنظام والقانون، وتسوده حالة الانضباط والإتقان، فإنه غالباً ما يترتب على ذلك، ويتفاعل مع هذا الاتجاه السائد، بينما إذا أحاطت به أجواء متسببة، فسينجرف معها. ونسمع كثيراً عن أشخاص يبدؤون مسيرة عملهم بالتزام وانضباط في المؤسسات أو القطاعات التي يلتحقون بها، ثم ما يلبثون أن يفقدوا تلك الحالة الإيجابية، ويصبحون جزءاً من الوضع الفاسد المنحرف، والسبب في ذلك هو تأثيرهم وتكيفهم مع المحيط العام.

وقد عايش مجتمعنا في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية تجربة حية على هذا الصعيد، تتمثل في أجواء الانضباط والالتزام التي حكمت العمل في شركة (أرامكو) منذ تأسيسها، حيث تربي العاملون فيها على التقيد بأوقات العمل دون أقل تباطؤ أو تأخير، وبالمواظبة على العمل دون تغيب حتى في أقسى الظروف، وبإتقان أداء المهام والوظائف بدقة وترتيب، كان معظم العاملين أميين غير متعلمين، ولا يمتلكون الخبرات الفنية الكافية، لكن الإدارة الحازمة والمنظمة في الشركة، صنعت محيطاً وأجواء منضبطة متقنة، تربي من خلالها أولئك العاملون.

ثقافة الإتقان:

يحتاج المجتمع إلى توجيه مكثف وثقافة عامة تدفع نحو الإتقان، وأن يؤدي الإنسان أي عمل يقوم به وإن كان بسيطاً بدقة وضبط، وترتيب واهتمام.

لذلك وردت النصوص والأحاديث الدينية التي تؤكد على هذه الأخلاقية الهامة، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)(٨٢).

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (إن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل أن يحسن)(٨٣).

وتحمل لنا حادثة مشاركة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في دفن الصحابي الجليل سعد بن معاذ، أروع توجيه في الالتزام بالدقة والإتقان، حيث ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم نزل حتى لحدّ سعد بن معاذ وسوّى اللّبن عليه، وجعل يقول: ناولني حجراً، ناولني تراباً رطباً، يسدّ به ما بين اللّبن، فلما أن فرغ وحثا التراب عليه وسوّى قبره، قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: إني لأعلم أنه سيبلى ويصل إليه البلاء ولكن الله يحب عبداً إذا عمل عملاً أحكمه (٨٤).

هكذا يهتم رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بترتيب وضع اللحد والقبر، مع عدم رجاء فائدة من ذلك، وإن مصيره إلى الخراب والتلف، لكن المطلوب هو تركيز هذه الحالة من الإتقان في سلوك الإنسان.

تربية الأحكام والتعاليم:

وإذا تأملنا التعاليم الدينية والأحكام الشرعية التي ترتبط بالعبادات والمعاملات، ولاحظنا دقتها في التفاصيل، وشموليتها لمختلف الجوانب المتعلقة بها، لوجدنا أنها تشكل مدرسة تربية، تدرّب الإنسان المسلم على الدقة والضببط وتنمّي في نفسه رعاية الإتقان والترتيب. فمثلاً موضوع التخلي والتخلص من فضلات الجسم، هذا الأمر على حقارته وبساطته عند الإنسان، له في الشريعة الإسلامية عشرات المسائل والأحكام بين واجب وحرام ومكروه ومستحب، لكي يؤدي الإنسان هذا العمل البيولوجي الطبيعي على أفضل وجه ودون أي مضاعفات وأضرار عليه وعلى الآخرين والبيئة.

وفي كتاب واحد من كتب الحديث هو (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة) للفقير المحدّث الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (توفي ١١٠٤هـ) هناك (١٧٤) حديثاً حول موضوع التخلي لقضاء الحاجة.

وعادة الصلاة التي يؤديها المسلم خمس مرات يومياً تنتظمها مجموعة كبيرة من الأحكام والضوابط، من حيث مكانها وزمانها وحركاتها وألفاظها، واللباس الذي يلبس خلالها، وسائر الشروط والمقدمات والأجزاء، وقد أحصى الشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي العاملي (٧٣٤-٧٨٦هـ) ألف واجب في الصلاة ضمن كتاب أطلق عليه (الألفية).

فليس مقبولاً أداء الصلاة على أي وجه وكيفما اتفق، بل لا بد من مراعاة الضوابط والأحكام، وإلا فإن الإخلال والتساهل عمداً بأي شرط أو جزء من الصلاة، ولو كان حرفاً واحداً يبطلها ويجعلها لاغية.. وهكذا الأمر في عبادة الصوم وفريضة الحج.

ونشير أخيراً إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم حول تذكيرة الحيوان وذبحه، والتعاليم والآداب التي ينبغي مراعاتها في هذا المجال، حيث يقول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتل وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته)(٨٥).

النماذج والقنوات:

إن على كل واع في المجتمع، وخاصة من يكون في موقع القيادة والمسؤولية، أن يجعل من نفسه إنموذجاً وقدوة في مجال ضبط العمل وإتقانه، فالوالدان في البيت يؤثران بسلوكهما في صنع نفوس الأبناء وأخلاقهم، فالأب المنظم في حياته، والملتزم بالدقة في أعماله، عادة ما تتطبع أخلاقياته هذه في شخصيات أبنائه، والأم التي تدير دفعة شؤون المنزل بترتيب وإتقان، يحاكيها أبنائها غالباً في سلوكهم بهذا الاتجاه. والمؤسسة التي يقودها مدير منضبط ملتزم، تسود تلك الصفة أجواءها، وتحكم أداء العاملين فيها.

إن بعض المدراء والمسؤولين في الأجهزة والمؤسسات، يعتبرون أنفسهم فوق قانون المؤسسة وغير ملزمين به، ولكنهم يضغطون على العاملين لديهم للتقيد بالنظام والقانون، ولا تثمر هذه الازدواجية إلا الفشل في العمل، وسوء العلاقة بين الإدارة والأفراد.

يقول الله تعالى: {تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} (٨٦).

ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (٨٧).

وجميل جداً ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عبد الله بن مسعود حين قال له: (يا ابن مسعود فلا تكن ممن يشدد على الناس ويخفف على نفسه، يقول الله تعالى {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}. يا ابن مسعود، لا تكونن ممن يهدي الناس إلى الخير، ويأمرهم بالخير وهو غافل عنه)(٨٨). ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (كونوا دعاة الناس بأعمالكم)(٨٩).

(١) الحسين، الدكتور زيد بن عبد المحسن، مبتكرات العصر وليدة خيال، مجلة الفيصل، ص ٤، عدد ٢٢٢،

مايو ١٩٩٥م، الرياض.

(٢) الريشهري: المحمدي/ ميزان الحكمة ج ١ ص ١٣٠ مكتب الإعلام الإسلامي/ قم ١٤٠٣هـ.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٠.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٠.

- (٥) سورة النجم الآية ٢٤.
- (٦) سورة النجم الآية ٣٩-٤١.
- (٧) سورة المائدة الآية ٦٩.
- (٨) سورة الكهف الآية ٨٨.
- (٩) سورة الرعد الآية ٢٩.
- (١٠) سورة الإسراء الآية ٢٠.
- (١١) التميمي: عبد الواحد الأمدي/ غرر الحكم ودرر الكلم ج ١ ص ٢٦٢ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت/ الطبعة الأولى.
- (١٢) الريشهري: المحمدي/ ميزان الحكمة ج ٧ ص ٨ مكتب الإعلام الإسلامي/ قم الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- (١٣) سورة الأنعام الآية ١٣٢.
- (١٤) سورة الأحقاف الآية ١٩.
- (١٥) سورة آل عمران الآية ١٩٥.
- (١٦) سورة الزلزلة الآية ٧-٨.
- (١٧) الوسط: مجلة أسبوعية/ لندن - العدد ٢٧٧ بتاريخ ١٩/٥/١٩٩٧م.
- (١٨) الحياة: جريدة يومية/ لندن - العدد ١٢٤١٥ بتاريخ ١٧/١٠/١٤١٧هـ.
- (١٩) الاقتصاد: مجلة شهرية/ عدد (٢٧٢) نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٥م.
- (٢٠) الحياة: جريدة يومية/ لندن ١٥/٧/١٩٩٩م.
- (٢١) الوسط: أسبوعية سياسية - لندن/ ص ٣٨-٣٩ عدد ٢٠٣ بتاريخ ١٨/١٢/١٩٩٥م.
- (٢٢) اليوم: جريدة يومية - الدمام/ عدد ٩٦٢١ - بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٩٩م.
- (٢٣) الاقتصادية: جريدة يومية/ بتاريخ ١١/٢/١٤٢٠هـ، ٢٦/٥/١٩٩٩م.
- (٢٤) سورة البقرة الآية ٢٠١.
- (٢٥) سورة القصص الآية ٧٧.
- (٢٦) سورة الانشقاق الآية ٦.
- (٢٧) سورة هود الآية ٦١.
- (٢٨) سورة الأنعام الآية ١٦٥.
- (٢٩) العسقلاني: ابن حجر. فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٥/ص ٥ رقم ٢٣٢٠ دار السلام - الرياض/ دار الفيحاء - دمشق/ الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- (٣٠) الألباني: محمد ناصر الدين/ سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١/ص ١١ رقم ٩/ الطبعة الرابعة ١٩٨٥م المكتب الإسلامي/ دمشق - بيروت.
- (٣١) سورة الكهف الآية ٤٩.
- (٣٢) سورة الأعراف الآية ٤٣.
- (٣٣) سورة الملك الآية ٢.
- (٣٤) سورة الكهف الآية ٧.
- (٣٥) الريشهري: المحمدي/ ميزان الحكمة ج ٧/ص ٨ مكتب الإعلام الإسلامي قم - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- (٣٦) المصدر السابق: ص ٣٠.
- (٣٧) العسقلاني: ابن حجر/ فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٨/ص ٤٣ رقم ٨٣٦ دار السلام - الرياض، دار الفيحاء - دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- (٣٨) المصدر السابق: ج ٧/ص ٤٩٩ حديث رقم ٤١٠٤.

- (٣٩) المصدر السابق: ج ١٠/ص ٥٦٦ حديث رقم ٦٠٣٩.
- (٤٠) المصدر السابق: ج ١٠/ص ٥٦٦ حديث رقم ٦٠٣٩.
- (٤١) الشيرازي: السيد محمد/السبيل إلى إتهاض المسلمين ص ١٤٧ الطبعة الثانية ١٩٨٦م مؤسسة البلاغ - بيروت.
- (٤٢) الطوسي: محمد بن الحسن/تهذيب الأحكام ج ٦/ص ٣٢٦ الطبعة الثانية ١٩٦٠م مطبعة النعمان - النجف.
- (٤٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن/تفصيل وسائل الشيعة ج ١٧/ص ٢٣/الطبعة الأولى ١٩٩٣م مؤسسة آل البيت لإحياء التراث - بيروت.
- (٤٤) المصدر السابق: ص ٣٧.
- (٤٥) المصدر السابق: ص ٤٠.
- (٤٦) المصدر السابق: ص ٤١.
- (٤٧) الشرفاوي: عبد الرحمن/علي إمام المتقين ج ٢/ص ٢٨ الطبعة الأولى ١٩٨٥م مؤسسة الوفاء - بيروت.
- (٤٨) المجلسي: محمد باقر/بحار الأنوار ج ٤٠/ص ٣٢٥ الطبعة الثانية ١٩٨٣م مؤسسة الوفاء - بيروت.
- (٤٩) المدرسي: السيد هادي/أخلاقيات أمير المؤمنين ص ١١٤ الطبعة الأولى ١٩٩١م مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
- (٥٠) الطوسي: محمد بن الحسن/تهذيب الأحكام ج ٦/ص ٣٢٥/مطبعة النعمان - النجف/الطبعة الثانية ١٩٦٠م.
- (٥١) المصدر السابق.
- (٥٢) الألباني: محمد ناصر الدين/سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١/ص ١١ حديث رقم ٩/الطبعة الرابعة المكتب الإسلامي ١٩٨٥م.
- (٥٣) المصدر السابق: ص ١٢.
- (٥٤) الطوسي: محمد بن الحسن/تهذيب الأحكام ج ٦/ص ٣٢٦.
- (٥٥) المصدر السابق: ص ٣٢٩.
- (٥٦) الحر العاملي: محمد بن الحسن/تفصيل وسائل الشيعة ج ١٧/ص ١٤ رقم ٢١٨٥٩ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث - بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
- (٥٧) المصدر السابق: ص ٢٨.
- (٥٨) المصدر السابق: ص ٣٣.
- (٥٩) الموسوي، الشريف الرضي، نهج البلاغة خطبة رقم ٢٩.
- (٦٠) الراشد، عبد الرحمن، حيث يعمل الناس بلاكل، جريدة الشرق الأوسط- لندن، ٢٧/٤/١٩٩٩م.
- (٦١) الشيرازي، يوسف أحمد، هذه الأرقام المفزعة، جريدة الشرق الأوسط لندن، ٢٨/٤/١٩٩٩م.
- (٦٢) الزاير، حسن علي، ثلاثية التطبيق الإداري في اليابان (ورقة في المؤتمر الخليجي الرابع لإدارة الموارد البشرية) ٢-٥ نوفمبر ١٩٨٦م.
- (٦٣) الشرق الأوسط، جريدة يومية- لندن، ١٠/٧/١٩٩٩م، ص ١٤.
- (٦٤) السيد علي السيد باقر العوامي.
- (٦٥) التنبيت هو تلقيح النخل بالقمح عند أول ظهور العذق، والتحدير هو انزال العذق عندما يكبر الثمر وربطه بإحدى سعفات النخل ليسهل جنيه، أما الجذاذ فهو قطع العذق من النخل عندما يصير تمراً.
- (٦٦) سورة الكهف الآية ٧.

- (٦٧) سورة الملك الآية ٢ .
- (٦٨) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .
- (٦٩) سورة الأتعام الآية ١٥٢ .
- (٧٠) سورة الإسراء الآية ٥٣ .
- (٧١) سورة فصلت الآية ٣٤ .
- (٧٢) سورة النمل الآية ٨٨ .
- (٧٣) سورة المؤمنون الآية ١٤ .
- (٧٤) سورة السجدة الآية ٧ .
- (٧٥) سورة التين الآية ٤ .
- (٧٦) سورة الملك الآية ٣-٤ .
- (٧٧) الحكيمي: محمد رضا/ محمد/ علي/ الحياة ج ١ ص ٣٠١ .
- (٧٨) المصدر السابق ص ٢٩٩ .
- (٧٩) سورة النساء الآية ١٤٢ .
- (٨٠) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج ٥ ص ٨٨ .
- (٨١) الفلسفي: محمد تقي/ الشاب بين العقل والعاطفة ج ٢ ص ٣١١-٣١٢ .
- (٨٢) الهندي: حسام الدين المتقي/ كنز العمال/ حديث رقم ٩١٢٨ .
- (٨٣) المصدر السابق/ حديث رقم ٩١٢٩ .
- (٨٤) الريشهري: محمدي/ ميزان الحكمة ج ٧ ص ٢٩ .
- (٨٥) القشيري: مسلم/ صحيح مسلم/ باب الأمر بإحسان الذبح .
- (٨٦) سورة البقرة الآية ٤٤ .
- (٨٧) سورة الصف الآية ٢-٣ .
- (٨٨) الحكيمي: محمد رضا-محمد-علي/ الحياة ج ١ ص ٢٨٦ .
- (٨٩) المصدر السابق ص ٢٩٠ .